نحو صياغة نفسية لخطاب نهضوي عربي على أعتاب القرن الحادي والعشرين

أ.مولاي بودخيلي محمد
جامعة وهران

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى تحقيق الأهداف التالية:

- إبراز التأثير القوي الذي يمكن أن تمارسه بعض الخطابات على الجماهير.
- تبيان أسباب فشل الخطاب النهضوي العربي في تحقيق ما كان يصبو إليه.
- تحديد الشروط التقنية التي يتعين على اي خطاب ناجح استيفائها.

Abstrat

The present paper intends to achieve the following objectives:

- To highlight the enormous impact that could have certain discourses on masses.

- To explain why many Arab awakening discourses failed to succeed in achieving what they aimed to, namely the awakening of Arab nations from that drowsiness.

- To pinpoint technical requirements that are to be met by any successful discourse.

الخطاب العربي بين الواقع والطموح

في بداية القرن التاسع عشر، ومابين سنتي 1807، 1808 على وجه التحديد، توجه الفيلسوف الألماني يوهان فختة (1762-1814) بخطاباته المشهورة إلى الأمة الألمانية يستحثها فيها على نبذ ما ألمّ بها من ضعف وهوان وعلى مساعدة نفسها بنفسها من أجل دخول أرض التاريخ على حد تعبيره. وفي نفس هذه الفترة تقريبا أو بعدها بقليل، أي حوالي سنة 1834 بالضبط، حاول رائد الصحافة العربية، أو أحد روادها الأوائل، رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873) أن يقوم مع بني جنسه، وذلك من خلال كتابه "تخليص الإبريز..." بنفس ما قام به فيختة مع الألمان من دعوة لليقظة وحث على التخلص من براثين الجهل والتخلف. من ذلك، ومضى قرن من الزمن على ذلك، أو أقل أو أكثر وأصبحت الأمة الألمانية القوة الاقتصادية الأولى في القارة الأوروبية (1890-1914)، لكن الأمة العربية، وعلى النقيض من ذلك، أضحت قطيعا من الشعوب تتلاعب به الأمم الغربية وتتنافس على إذلاله وإخضاعه كافة القوى العالمية، الشرقية والغربية. وكأن رداءة الأحوال العربية هذه أثرت بالغ التأثير في نفوس لفيف من ذوي الفكر والرأي من أبناء هذه الأمة، وحز في صدورهم غاية الحز، فما كان منهم إلا أن أعلنوا بعنف وقوة سخطهم على ما شاهدوه من أوضاع مزرية في أوطانهم، وعلى ما عايشوه من شيوع للجهل والخرافة في كل شبر من ديارهم. وراح طه حسين، وهو العميد فيهم، يدعو العرب ويخاطب المصريين منهم على وجه الخصوص، ويحث من يسمعه منهم على وجه أخص، على الانغماس كل الانغماس في برك الحضارة الغربية، بل وفي مستنقعاتها، لعل الأمور تتغير، ولعل المشرق العربي ينام يوما ليفيق في اليوم التالي وقد أصبح قطعة من أوروبا أو جزءا لا يتجزأ منها، قوة وأبهة واستطالة، لقد قال في كتاب له نشره سنة 1938 تحت عنوان "مستقبل الثقافة في مصر" ودونما شيء من الجرأة "لكن السبيل إلى ذلك، أي الرقي، ليس في الكلام يرسل إرسالا ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء. وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حُلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب"(1). إن الطريق إلى الحضارة، كما خالها طه حسين، ومن لف لفه، هي أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، ونشعر كما يشعر، ونعمل كما يعمل ونتفاعل مع الحياة كما يتفاعل. هكذا رأى أقوام، وهكذا كان اجتهادهم. وليس من شأننا الحكم على ما رأوا أو على ما اجتهدوا. إن بالمدح أو بالقدح. إن الذي يعنينا هنا هو: هل وصل الخطاب، وهل وصل معه العرب، وهل تم الرقي المنشود؟ وهل لحق العرب -والمهم-

بركب الأمم المتحضرة ؟ الواقع أن الذي حدث هو أن الأمة العربية بدل أن تفلح، بعد كل مـــا ســـمعته من خطابات، في التقليص من سعة الفجوة الفاصلة ما بينها وبين الغرب، أفاقت على استحالة الفجوة المذكورة إلى فجوتين. وأصبح بالتالي العالم الذي كانت تطمح إلـــى اللحاق به عالمين اثنين لا عالما واحدا، عالما في الغرب وعالما في الشرق. أو لا يخشـــى المرء بعد كل هذا، وبعد كل ما رأى، أن يستيقظ يوما وقد أصبحت الأمة العربية مطالـــبة، ليس باللحاق بمن سبقها من الأمم فحسب، وإنما باللحاق أيضا، وبالإضافة إلى ذلك، بآخر ما تبقى لها من خصوصيات، قبل أن يبتلعها التاريخ وتغيب عن الوجود، كما غابت قبلها خصوصيات وخصوصيات.

إن مـــا نحن مقبلون عليه من عولمة، عولمة ماذا؟، قد لا يكون أكثر من محطة، أخيرة ربما، يتوجب فيها علينا أن نختار، إن بقي هناك اختيار، ما بين الوجود والعدم، أو مـــا بين المساهمة الفعالة في كتابة ما تبقى من التاريخ، أو جزء منه على الأقل، والرضا بـــأن يلفظـــنا هـــذا الـــتاريخ فـــيما يلفظ من نفايات، ويمجنا فيما يمج من مستقذرات. إن الخطابات النهضوية على كثرتها واختلاف منابعها، وتعدد اتجاهاتها وألوانها لم تفلح حتى الآن فـــي استنهاض هذه الأمة واستنفار ما لديها من طاقات في شتى المجالات، وشحذ ما تزخر به من همم وطموحات. فهل العيب في هذه الخطابات أم في هؤلاء المخاطبين ؟ إن محاولتـــنا الإجابة عن هذا السؤال سوف لن تكون بالتأكيد أكثر من محاولة تشخيصية لما نحســـبه داء واحـــدا، وهـــو في الحقيقة مجموعة من الأدواء، وسوف لن تكون أكثر من إطلالـــة سريعة- ومن زاوية واحدة فقط- على مشكل يحتاج الإلمام بكل أبعاده إلى الكثير مـــن التدقيق والتمحيص، وعبر الكثير من الزوايا. ومع ذلك سوف نفترض، جدلا وعلى وجـــه التبسيط لا غير، إن مشكل استنهاض أمة بأكملها واقتلاعها مما هي فيه من أوحال إنما يرجع إلى طبيعة الخطابات النهضوية وما تتمتع به، أو ما لا تتمتع به، من قدرة على تحـــريك الساكن من الشعوب، وعلى بث الحياة فيمن لا حياة فيه منها. والافتراض هذا لا يجـــب أن يفهم بأي من الأحوال على أنه انتقاص أو محاولة انتقاص من قيمة الدور الذي تلعـــبه، مثل هذه الخطابات أو ما يقوم مقامها من سلوكات. ذلك أن استقراء التاريخ كثيرا مـــا ينم عن وجود علاقات متينة بين ما يطرأ على المجتمعات من تغيرات، قد تصل حد الـــثورات، ومـــا يسبق هذه التغيرات من عمل تحضيري تقوم به خطابات معينة هي في الحقيقة محاولات لتغيير أو تعديل اتجاهات أفراد جماعة معينة نحو قضايا محددة.

أهمية الخطاب النهضوي:

بينما كانت الحرب الأهلية الصينية تستقبل عامها الثامن سنة 1934 قامت طائرات تشانغ كاي تشاك بالتحليق فوق الأقاليم الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين لتوزيع مناشير تعد فيها كل من يسلم ماو تسى تونغ بمكافئة مالية مغرية. وبمنتهى العناية وبتكليف من الزعيم الشيوعي تم التقاط المناشير المذكورة ليعاد توزيعها بعد ذلك ومن جديد، على الشعب لكن بعد أن حملها ماو من الألفاظ والعبارات ما شاء أن يحملها(2). وبهذه العملية استطاع القائد الصيني الثائر أن يصيب هدفين اثنين برمية واحدة-، الاقتصاد في الورق الذي كان في أمس الحاجة إليه، ثم إيصال خطابه لمن شاء من مواطنيه. وإذا كان هناك من سؤال يستحق أن يطرح هنا فهو: لماذا كلف ماو نفسه ورجاله كل ذلك العناء من أجل التقاط المنشورات أولا، وإعادة طبعها ثانيا ثم توزيعها على الشعب بعد ذلك؟ إن تفسير ذلك يرجع ببساطة إلى إدراك هذا القائد لما للكلمة من سحر وتأثير على النفوس، ولما للخطاب من نفوذ على المخاطبين. والحقيقة إن هذه الحقيقة كانت دائما الزاد لمن لا زاد له من الدعاة، والسلاح لمن لا سلاح له من الثوار، وذلك منذ أن بدأ الإنسان يعي أن الإنسان تصنعه الأفكار والكلمات قبل أن يصنعه أي شيء آخر. ولقد وفق الكاتب الإنجليزي وليام جودوين (1756-1836). في التعبير عن هذه الحقيقة أيما توفيق حينما قال "أرني بأوضح طريقة وبأبعدها عن الالتباس أن منوالا من السلوك هو الأكثر صوابا في حد ذاته، أو الأكثر ملائمة لمصالحي، وسوف أقوم حتما بإتباع ذلك المنوال ما دامت الآراء التي أوحيت بها لي عالقة بذهني(3). ولذلك فأن التاريخ، قديمه وحديثه، لا يكاد يخلو من استغلال فاحش في بعض الأحيان لسحر الكلمة، ولما لأساليب الإقناع الكلامية من قوة، وذلك كلما تعلق الأمر ببسط نفوذ هذه الجماعة أو تلك على غيرها من الجماعات، أو بنشر ما تدين به من مبادئ، أو بمواجهة ما تعاديه منها وتحاربه. وقد يكون هيرودوتس، أب التاريخ، كما سماه شيشرون، من أوائل أو أقدم من ساهم، عن قصد منه أو عن غير قصد، في إرساء دعائم ما أصبح يعرف فيما بعد بالدعاية، أو بفن الاستيلاء أو السيطرة على أفكار الناس أو اتجاهاتهم، بالتوجيه لها تارة، وباجتثاثها اجتثاثا تارة أخرى، وذلك عندما قام بكتابة "تواريخه"، وهو المؤلف الذي رأى فيه البعض تاريخا لأثينا من ناحية، وتمجيدا ودعاية للأحد أعمدة النظام الأثيني من ناحية أخرى، وتشاء الصدفة أن يكون الحاكم المبجل والممجد من قبل هيرودوتس خطيبا هو الآخر، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن الذي مارس الدعاية فعلا، أهو المؤرخ هيرودوتس أو الحاكم بيريكليس؟ وإذا جاز لنا أن نبرئ أب التاريخ من تهمة الدعاية، إن كانت ممارسة الدعاية

تهمة في حد ذاتها، فإن الذي لا نستطيع أن نفعله مع خطباء أثينا، وبأي حال من الأحوال، هو أن نحاول تبرئتهم هم الآخرين أيضا منها. ذلك أن الخطابة أصبحت، في عهد السفسطائيين خاصة، فنا يتعلم وعلما يدرس، كما أصبحت الوسيلة الأولى التي تمكن الناس من الدفاع عن حقوقهم في ساحات المحاكم، وتمكن المروجين لأفكارهم من التسلل إلى أعماق الكثير من الناس. ولقد استعان بها السياسيون لسحق خصومهم، ولجأ إليها كل ملفق ومزور، كما اتكأ عليها كل من يدعو إلى فضيلة أو مكرمة. وللباحث عن الدور الذي كانت تضطلع به الخطابة في المجتمع اليوناني، من بث للأفكار هنا، أو تشويه للبعض منها هناك، أن يرجع إلى محاكمة سقراط وما تعج به من تفاصيل، وسوف يجد الكثير مما يبحث عنه.- ومن هذا الكثير يمكن أن نقتبس جزءا صغيرا من مرافعة الفيلسوف المذكور يبين فيها، ومن خلالها، براعة خصومه في تلفيق ما لفقوه له من تهم وأكاذيب ويوضح فيها، في نفس الوقت، عجزه عن مجاراته لهم في ذلك لعدم امتلاكه لما كانوا يمتلكونه من فصاحة وبيان "يبدأ سقراط باتهام متهميه بالفصاحة، صادا عن نفسه هذه التهمة، وهو يقول: إن الفصاحة الوحيدة التي في مقدوره، هي فصاحة الحق، ولا ينبغي لهم أن يغضبوا منه إذا ما تحدث إليهم على مألوف عادته بدل أن "يلقي خطبة معدة مزخرفة بما يليق بالمقام من ألفاظ وعبارات..(4) ومع تأسيس "مجمع الدعاية " أو مجمع نشر الإيمان بروما سنة 1633 على يد البابا أوربانوس الثامن أصبح للدعاية مؤسسة رسمية يعمل بها أشخاص مختصون، يؤمنون أشد الإيمان بقيمة ما أوكل إليهم من مهام، وبأهمية ما استنفروا من أجله من وظائف. وعلى إثر هذا المجمع، أو هذه المدرسة كما قد تسمى سارت مؤسسات وتتبعها أخرى، ولا شك أن المؤسسة التي تربع على قمتها حينا من الدهر الدكتور جوزف غوبلز Goebbels (1897-1945) هي من أشهر تلك المؤسسات، إن لم تكن أشهرها على الإطلاق، وذلك لما اقترنت به من أحداث خطيرة، ولما عايشته من أمور جسام. والمؤسسة المعينة هذه هي وزارة الإعلام والدعاية. وقد تم إنشاؤها سنة 1933 أي سنة استيلاء هتلر على الحكم بألمانيا. وإنشاء هذه الوزارة بهذا الاسم يشبه إلى حد ما اعلانا رسميا عن ميلاد شكل جديد من أشكال الحروب، هو الحرب النفسية، استطاع أن يبرهن وفي العديد من المناسبات، على ما يمكن أن يحرز عن طريقه من إنجازات رائعة، ليست بأقلها شأنا المشاركة في تقرير مصير الكثير من الحروب.

وما نعنيه بالميلاد هنا إنما هو الميلاد الرسمي الخاص بالحرب النفسية كتخصص دعائي يقوم أساسا على المعرفة العلمية والتقنية المتطورة، وليس مجرد الميلاد، فعمره هو

عمـــر الدعاية دون شك. والألمان حينما أنشأوا وزارتهم تلك أنشأوها وكأنهم يعلنون بذلك للمـــلأ، وبوضوح تام، عما للدعاية من أهمية في كسب مختلف القضايا، وليبينوا أيضا كم كـــانوا مخطئين طوال الحرب العالمية الأولى في عدم تقريرهم التقدير الكافي لأهمية هذه الوســـيلة، وفـــي عـــدم إعطائهم لها من العناية كل ما تستحق. ولقد أدى هذا التفريط إلى الاقتصـــار مـــن جانبهم في العمل الدعائي على الدفاع، وهو ما مكن الحلفاء من ممارسة أنشـــطتهم الهجومـــية فـــي راحة شبه تامة عن طريق ما أسسوه من هيئات مختصة بدأت تشـــهد مـــيلادها تباعا، ودون الكثير من الضوضاء، إبان سنوات الحرب العالمية. وهكذا وفـــي سنة 1917 تولى الرئيس الأمريكي وويلسون W.Wilson تنصيب ما سمي بلجنة الإعلام العمومي committee on public information تحت إشراف جورج كريل G.Creel وذلك من أجل التأثير على الرأي العام العالمي والمحلي وتوجيهها، ومن أهم ما كانـــت تســـعى إلـــيه هذه اللجنة من أهداف إقناع الشعب بعدالة قضية الحلفاء والاحتفاظ بدرجـــة عالية من الروح القتالية لديهم، وهذا بالإضافة إلى محاولة تحطيم معنويات العدو. والـــنهج هـــذا هـــو النهج الذي سارت عليه بريطانيا حين أقدمت سنة 1918 على تأسيس جهازها الخاص تحت اسم قسم الدعاية المعادية.

فالكلمـــة إذن لها من القوة والسطوة ما لها. وإذا كان الإنسان يستطيع بفضل ما أوتي مـــن قوة وجبروت أن يخضع لإرادته كل من يريد ممن لا يملك من وسائل القوة ما يملك فإنه وبالتأكيد لا يستطيع، ولن يستطيع، أن يسيطر على أفكار غيره، ولا على الدوس على مـــا يشـــاء من المبادئ، إلا حينما يلجأ إلى الكلمات يرسم بفضلها وبمهارة فضاءه المقنع، ويشـــكل من خلالها عالمه المزيف. وكل من أدرك هذه الحقيقة وسار على ضوئها كان له من القوة والنفوذ ما كان له.

ويكفـــي للدلالـــة علـــى صـــحة ذلك تسابق الكل، ودون استثناء، وكل حسب طاقته وإمكانـــياته، نحـــو الاســـتحواذ علـــى كـــل الوسائل الموصلة إلى عقول الناس وقلوبهم وضـــمائرهم، أو على ما تبقى منها. وحينما نقول ما تبقى منها فإننا نفعل أكثر من التعبير عمـــا أصـــبحنا نعايشه من أوضاع متميزة في واقع أكثر تميزا، وذلك كنتيجة منطقية لما أصـــبح يتعرض له معظم الناس يوميا من سيول إعلامية وإعلانية محملة بشتى الأكاذيب والأقاويل. فالمجتمع الرأسمالي الغربي مثلا يعيش ومنذ مدة، تحت سيطرة ما أسماه زيغلر Ziegler بالضـــمير المجنس Conscience homogénéisé ومن شأن هذا الضمير أن يقـــود أصـــحابه، فـــي الكثير من الأحيان، إلى إدراك فصامي للواقع ولما يتواجد في هذا

الواقـــع. وكمـــثال على الشذوذ الذي يمكن أن يصاب به هذا الإدراك يورد، لنا زيغلـــــر نتفا حول ما حدث في وحول كمبوديا قبيل هلاك ما يقارب من ثمانمائة ألف من البشر من سكانها سنة 1979.

لقـــد ذكـــر هـــذا السياســـي السويســـري كيف حاول هنري كسنجر أن يقنع سامعيه ومشـــاهديه، وكـــل العـــالم مـــن ورائهم بوجوب قنبلة هذا البلد الآسيوي من قبل القوات الأمريكـــية، وذلك من خلال حصة"علامات حذف" التي قامت القناة الفرنسية ببثها في26-10-1979. ونجحـــت محاولـــة الدبلوماسي الأمريكي في الوصول إلى ما كانت أمريكا ترغـــب في الوصول إليه من إقناع للرأي العام العالمي بضرورة، وربما بحتمية ما كانت قد خططت له فعلا. والدليل على ذلك أن جريدة لو مند الفرنسية خرجت في اليوم الموالي لمـــرافعة كسنجر الدعائية تشيد بآراء هذا الأخير وتصفها بالمقنعة بل وبالمثيرة للإعجاب. ولومند حينما أقدمت على هذا الإطراء لم تقم بأكثر من عملية عكس لما كانت تراه أغلبية الصـــحف، ولما كان يراه معظم الناس، ويعلق زيغلر على هذه الأحداث قائلا بأن الشيء المؤكـــد هـــو أنـــه لـــو لا هـــذه القنبلة لما كان هناك ثمانمائة ألف قتيل، ولما سقط نظام ســـيهانوك، ولما انتهى استقلال كمبوديا وما تبع كل ذلك من ديكتاتورية لون نول Lon Nol وجـــنون دمـــوي لبول بوت Pol Pot وغزو فيتنامي، وهجرة ونزوح وموت مئات الآلاف مـــن الكمبوديين(5). والحقيقة إن الضمير المجنس، أو المدجن، يستطيع أن يفعل بأصـــحابه أكـــثر من هذا. فهو إن كان قادرا على قلب الحقائق فهو قادر أيضا على قلب الإنســـان ذاتـــه. ولذلك فإن زيغلر حينما يطرح السؤال التالي: "ماذا يصبح الإنسان الذي يعيش تحت رحمة هذا الضمير؟" لا يجد، للإجابة عنه، أفضل من اللجوء إلى هوركايمر Horkheimer وتحلـــيله التالـــي:"إن هدف مشروع عصرنا هو استقلالية الأنا والمحافظة علـــيه، وهـــذا في وقت لم يعد فيه وجود لهذا الأنا.. إن الفردية تعني اللجوء الطوعي إلى عدم الإشباع الفوري وذلك من أجل الحفاظ على الأمن وعلى المتطلبات المادية والمعنوية للوجود الذاتي.. لكن إذا كان الطريق إلى ذلك مسدودا لم يعد هناك ما يبرر عدم الانغماس فـــي الملـــذات الفورية والمؤقتة..إن السلطة الاجتماعية تعتمد اليوم، كما لم تعتمد أبدا من قـــبل، علـــى السلطة الممارسة على الأشياء فكلما كان اهتمام الشخص بالأشياء قويا كلما كـــبرت ســـيطرة هذه الأشياء عليه.."(6) إن الفرد كما يقول هوركايمر ينقرض ويتلاشى ليصبح مجرد نسخة تشبه إلى حد بعيد النسخ المتواجدة حوله. والضمير المجنس عليه بعد كـــل هـــذا أن يكون مستعدا لأكثر مما ذكرنا. فالعنف التجاري، وهذا تعبير زيغلر، أصبح يمـــارس –عبر الإعلانات مثلا– ما يسميه ماركيز Marcuse بإشباع الحاجات القمعي

La satisfaction répressive des besoins وذلك لأن العقلية التجارية تعمد إلى خلق الحاجات التي تقوم بإشباعها بعد ذلك. إن الضمير التعس-والنعت هنا لماركيز- هو ما تبقى من كرامة إنسانية أو هو الملجأ الوحيد لها. وهذا الضمير يعرف الخطأ ويعرف الحاجات الحقيقية للإنسان، المادية والفكرية والعاطفية، لكنه يعرف، وفي نفس الوقت، ضعفه أمام النظام الذي يعايشه ويقوم بقمع إنسانيته. ولا تخيلن لأحد أنه يستطيع أن يتبنى من أفكار خلاف ما يتبناه مجتمعه لأنه سيجابه حينها، حسب تعبير ماركيز دائما، بالتسامح القمعي، وهو التسامح الوحيد الموجود في الغرب، وفي البلدان التي لازالت تعترف بالتسامح. فكل من يحاول التصدي للنظام السائد يصبح رافضيا Negativisé ومرضيا وسوف يلقى به في زاوية من التهميش والنكران(7).

إن الصورة هذه هي صورة قائمة لما يمكن أن تقوم به وسائل التثقيف الجماهيرية، ولما يمكن أن تحدث من أضرار على الفرد والمجتمع. والتحليل المقترح من قبل زيغلر، وماركيز وهوركايمر لا يبتعد عن الواقع كثيرا، إن كان هناك ابتعاد عنه أصلا. والذي نريد الوصول إليه هو أن الوسائل الدعائية المختلفة تستطيع أن تصنع الأعاجيب، وكل ما يتطلبه الأمر للوصول إلى ذلك هو الاستخدام المنهجي للمعارف العلمية التي أصبح عصرنا يزخر بها. لكن ما علاقة الخطاب النهضوي المنشود بكل ما قلناه عن الدعاية وآثارها؟

إن الجواب هو أن الخطاب شكل من أشكال الدعاية لغة واصطلاحا. فقد جاء عن الحجاج أنه قال"أمن أهل المحا شد والمخاطب؟ أراد بالمخاطب الخطب.. وقيل هو جمع مخطبة، والمخطبة الخطبة، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة، أراد أنت من الذين يخطبون الناس ويحثونهم على الخروج والإجماع للفتن "(8). فالخطاب إذن، أي الخطبة، هو حث على إتيان أمر أو تجنب لآخر، والدعاية ليست غير هذا. وأما بخصوص لفظ الدعاية ففي "كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل : أدعوك بدعاية الإسلام أي بدعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة"(9) الشيء الذي يبين أن الخطاب هو دعوة للغير-أو دعاية له- من أجل الالتفاف حول قضية ما واحتضانها بتقديم ما يمكن تقديمه من حجج وبراهين تجعل من الالتفاف المذكور أمرا لا مناص منه. وبهذا ندرك أن كل ما نسب إلى الدعاية من أهمية وخطورة شأن يمكن أن ينسب أيضا إلى الخطاب النهضوي.

أهمية تحديد المخاطب أو المقصود من الخطاب:

لمن توجه الخطابات النهضوية، أو لمن يجب أن تتوجه؟ إن أهمية هذا السؤال، أو أهمية الإجابة عنه بتعبير أصح، تكمن في أن تحديد المخاطب وخصوصياته هو الأساس الذي يشيد عليه كل خطاب، وهو الإطار العام أو الهيكل الذي ترسم على منواله تفاصيله، أي تفاصيل الخطاب. ولنا أن نتصور بعد ذلك بناء دون أساس أو قاعدة، ولنا أن نتخيل الشكل الذي سيكون عليه نظام دون هيكل أو إطار عام. والخطاب بناء قبل أن يكون مجرد مواد بناء، وهو نظام قبل أن يكون مجرد أفكار لا يقر لها قرار. ولذلك فإن السؤال الذي يجب أن يطرح، وبالضرورة، قبل إعداد أي خطاب نهضوي هو : من هم صناع الحضارة؟ أو من هم صناع النهضة ؟ أهم الساسة أو المثقفون أو عامة الشعب؟

يقول فيخته وهو يتحدث عن الشعب الألماني "الشعب هو الذي كان دائما نقطة البداية في نمو الإنسان عند الأمة الألمانية، إن الشعب هو الذي تحمل عبء المصالح الوطنية، هو الذي حافظ عليها، فأمّن الدفاع عنها وثبّتها ونمّاها.."(10) والشعب الألماني لا يمكن أن يكون نسيج وحده بالنسبة لهذه المسألة، ولا غرة زمانه. فالشعوب كلها تستطيع أن تقوم بما تقوم به، أو بما قامت به، الأمة الألمانية من مهام البناء والتشييد والحراسة والذود عن المصالح الوطنية.

إن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حينما كتب مقاله المعنون بـ"لا يبني مستقبل الأمة إلا الأمة" سنة 1936 إنما كان إلى هذه الحقيقة يشير، وعنها يتحدث، حقيقة إن الشعب هو المصدر الحقيقي لكل يقظة أو تطور. لكن ما تستطيعه الشعوب هو"إن تجلو ماضيها القريب معتبرة، وتبلو حاضرها المضطرب مختبرة لتقدم على بناء مستقبلها مستبصرة،(11) كما جاء في المقال المذكور منذ حين، دون أن يكون لها إدراك بحقيقة ما تعيشه من أوضاع، أو تفهم لما هي مقبلة عليه من مهام أو لما هي مكلفة به من أدوار. لكن من هم أولئك الذين يعينونها على ذلك؟ من هم أولئك الذين ينيرون لها الطريق ويمهدون لها السبيل؟ إنهم صناع الحضارة الحقيقيون، أسباب كل نهضة وأرباب كل يقظة. إنهم مثقفون. "والمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها. تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير. ومازالت عامة الأمم –من أول التاريخ– تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها، تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف. تحتاج إليهم في الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة. ويغذونها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال.

وتحتاج إليهم في أيام الخوف ليحلوا المشكلات المعقدة ويخرجونها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة "(12) هل هناك خوف أكبر، بالنسبة للأمة، أية أمة، من الخوف من أن يلفظها التاريخ ويجعل منها عبرة لمن شاء أن يعتبر، أو ذكرى لمن أراد أن يتذكر! والمثقفون هم، قبل ذلك وبعد ذلك، سدنة التطور وحماته. ومن هم غيرهم يمتلك الثقاف الذي به يقوم كل اعوجاج، وبه يزال كل ناتىء: أو لم تقل عائشة رضي الله عنها يوما وهي تصف أباها الصديق"وأقام أوده بثقافة"، تشير بذلك إلى تسويته لاعوجاج المسلمين. فأمر النهضة إذن هو أمرهم قبل أن يكون أمر غيرهم. ولذلك لم يجد فيختة بدا من عرض مشروعه الخاص بتغيير ألمانيا وتطويرها على المثقفين.إنه يقول"وعندما أعرض مشروعي في هذا الخطاب أتجه خاصة إلى الطبقات المثقفة في ألمانيا، آملا أن تكون أول من يفهمه وأدعوها أن تكون أول الداعيين لهذا الخلق الجديد"(13). ويعود ثانية ليقول، وفي نفس هذا الإطار دائما، "وعلى هذا نعرض على الطبقات المثقفة وللمرة الأولى أن تضع نفسها على رأس الأمة كي تكون قادتها ومعلميها.. ولسوف نرى أن هذه الطبقات لا تستطيع أن تعرف مقدما ما هي المدة الزمنية التي تبقى فيها قائمة على رأس هذه الرسالة التي لا يمكن أن تكتمل ألاّ إذا أصبح الشعب مستعدا وناضجا لتقبلها تماما"(14). وإذا كانت أهمية دور المثقف، بالنسبة لما نحن بصدد التحدث عنه من نهضة من الأمور التي لا يمكن أن يختلف حولها اثنين، فإن ما يدعو إلى الجدل حقا ويوجبه هو قدرة المثقف العربي أو عدم قدرته، على الاضطلاع بما ينتظره من مهام في هذا المجال، وقدرته على التخلص، قبل ذلك من مرض الانسحاق أمام الثقافة الغربية، ذلك المرض الذي ما فتئ يفتك بالكثير من مثقفي هذه الأمة شرقا وغربا. ولقد أشار إلى دواعي هذا الداء وأسبابه وما نتج عنه من آثار على الصعيدين الاجتماعي والثقافي إبراهيم منصور حينما قال: "وهذه المقولة تدعى أن الطريقة أو الظروف التي تكونت بها فئة المثقفين المحدثين في مصر قد أورثتها الكثير من الأمراض التي قد يكون أخطرها على الإطلاق مرض الانسحاق أمام الثقافة الغربية واحتقار الثقافة القومية والعربية باعتبارها مسؤولة عن تخلف الوطن العربي –ومنذ قام رفاعة الطهطاوي في النصف الأول من القرن الماضي بزيارة فرنسا وعاد كي يكتب كتابه الشهير "تخليص الأبريز في تخليص باريز" الذي عكس انبهاره الشديد بكل مظاهر الحضارة الأوروبية والمصريون يتوارثون مرض الانسحاق أمام الحضارة الأوروبية. وقد برز ذلك المرض بشكل واضح في جيل المثقفين الذي بلغ مرحلة الرشد الثقافي بعد الاحتلال البريطاني لمصر... أعني جيل أحمد لطفي السيد وسعد زغلول– الخ والجيل الذي تلاه وتأثر به، أي جيل طه حسين والدكتور محمد

حسين هيكل وتوفيق الحكيم ويحيى حقي"(15). والانسحاق الثقافي لشريحة من المثقفين أمام الحضارة الغربية ليس هو مشكل المصريين وحدهم من دون من عداهم من المثقفين العرب. فكل أرض وطأتها أقدام المستعمرين، عربية كانت أم غير عربية، هي أرض أباح المستعمر لنفسه أن يزرع فيها من الأفكار والمعتقدات ما شاء، وأن يحاول اجتثاث ما يستطيع اجتثاثه من خصائص ومقومات منها كيفما شاء، وأن يبيض فيها ويفرخ أنى يشاء، دون وخز من ضمير أو نكران من نكير. فكان من نتائج كل ذلك أن ترعرع جيل من المثقفين العرب، أو بالأحرى أجيال ل منهم، تدعو إلى الانغماس في حضارة الغرب انغماسا لا يبقى من خصائص هذه الأمة إلا ما صعب اقتلاعه، أو ما استحال بالكلية طمسه. ولقد نتج عن هذا الانطماس الفكري أمام كل ما هو غربي أن أضحت الثقافة وبالا على الأمة، وغدت داء من جملة ما تعاني منه من أدواء. ولنستمع إلى محمد البشير الإبراهيمي وهو يصف ما آل إليه أمر حراس عز هذه الأمة ومجدها في بلاد كالجزائر – لقد قال: "أكبر عيوب المثقفين بالثقافة الإسلامية جهل مطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الأوروبية جهل فاضح بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه وبتاريخ الأمة، وهو مصباحها المضيء، وبلسانها، وهو ترجمانها الصادق، ونشأ عن اختلاف الثقافتين ما لا يحصى من المضار والمفاسد التي صيرت الثقافة فينا عديمة الفائدة ومن أكبر مفاسدها الاختلاف في وجهات النظر فتختلف الآراء في المصلحة الواحدة على رأيين متناقضين، وفي المفسدة الواحدة كذلك، وهناك تنقلب الحقيقة ويصير المثقفون بلاء على الأمة ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها وأعداءها بعد أن كانوا أولياءها"(16). وإذا كان الاستعمار قد نجح إلى حد بعيد في التفريق ما بين مثقفي هذه الأمة وغيرهم من أبناءها، وفي زرع ما لا يحصى من الحواجز بينهم، وفي تلغيم هذه الحواجز وما يفصل بينها من مسافات، فهل يبقى من أمل في أن يعود المثقفون العرب إلى تأدية رسالتهم المتمثلة في قيادة أمتهم نحو ما فاتها إليه الآخرون من عز، ومجد وتقدم. ربما. لكن الخطاب النهضوي سيكون عليه أولا حل هذه المعضلة. ويا لها من معضلة.

إن الساسة، وهم أيضا من صناع الحضارة أو النهضة، لا يكاد يختلف وضعهم عندنا عن وضع المثقفين. فهم في واد وبقية الأمة في واد آخر. وما يزيد من سعة الفجوة الفاصلة ما بين الأمة العربية وساستها استعانة هؤلاء بطبقة من المثقفين لا هم لهم إلاّ التزلف، ولا مسعى لهم إلاّ التملق، ولا مطمح لهم سوى تحقيق ما يستطيعون تحقيقه من مآرب. أما الأمة، وأما الشعب، وأما النهضة، فموضوعات لا تكاد تخطر بأذهانهم. وإن خطرت فعلى سبيل الإتكاء عليها، والاستفادة من التغني بها وبمحاسنها لا غير. ومع هذا

فبدونهم لا يمكن أن تجري السفينة ولا أن يقلع القطار. وعدم أخذهم بعين الاعتبار هو الخطأ، بل وعين الخطأ إذ ما الذي يمكن أن تجنيه الأمة بكرهها لهم، والتعالي عليهم والانفضاض عنهم؟ إنها ستجد نفسها حينها مضطرة للسير وحدها بدون حاكم وستنفصل عنه وترفض الوفاء له ويمضي كل منهما على هواه. وعندئذ يقتحم هذه الأعضاء المنعزلة ـــــ أي الحكام ـــ خوف أعظم فتمنح دون حساب، في هيئة كاذبة الفرح، ما لم تكن تمنحه غلاّ في شح ودون حماس للمدافع عن الوطن، ويدوم ذلك حتى يرى الحكام أنفسهم وقد تخلى عنهم وخانهم الجميع، مكرهين على أن يشتروا بقاءهم في السلطة بقبول خطط الأجنبي وخضوعهم لهذه الخطط"(17). فهل مثل هذه النتيجة مما يساعد الأمة على بلوغ أهدافها أو مما يعينها على تخطي ما تلاقيه في طريقها من مصاعب ومتاعب؟ ومن المصاعب هذه سعي البعض الدائم للإبقاء على الأوضاع الراهنة كما هي بالنسبة للأمة العربية. وليس من الغريب أبدا، وفي سبيل الوصول إلى ذلك، "إن يجري البحث دائما عن طريق الإشاعات الكاذبة وتشويه مقصود للمبادئ واللغة، للوشاية بالأمراء أمام الشعوب، وبالشعوب أمام الأمراء أي للتفريق بشكل أكيد، كما جرى البحث لتحريض الغرور والأنانية من أجل أن تغدو الرعية محتقرة فيسهل دوسها بالأقدام في راحة ضمير"(18). فالمثقفون عندما يحيدون عن سواء السبيل قد يصنعون بشعوبهم الكثير مما عجز الاستعمار، قديمه وحديثه، عن صنعه.

هؤلاء إذن هم المعنيون بأمر الخطاب النهضوي، وما يتميزون به من خصائص هو أول ما يجب على هذا الخطاب أن يأخذه بعين الاعتبار. وما يتسمون به من فروق هو مما لا يجوز تناسيه أو التغافل عنه. ولقد أكد الشارع الحكيم على أمر يشبه هذا حينما قال أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونخاطبهم على قدر عقولهم. فليس من الحكمة في شيء أن يخاطب الحكام بما يخاطب به عامة الناس، وليس من الفقه أن نلبس الكل عباءة واحدة. فقد تضيق عن البعض ويجدها البعض الآخر في منتهى الفضفضة. وإذا أردنا أن نوجز في كلمة واحدة مجمل ما يجب مراعاته من خصائص و خصوصيات، قبل إعداد أي خطاب، فسوف لن نجد أفضل من كلمة الذهنية. وتشتمل هذه التسمية "على الأفكار التي يصطنعها الناس عن المدينة، وعن الدولة وعن الأمة، وعن التنظيم الداخلي للجماعة التي هم جزء منها، وعن مكانها في العالم، كما أنها تتناول المرتبة الفردية التي يتمسكون بها"(19). فالشعب له ذهنيته، وللمثقف ذهنيته، وللحاكم ذهنيته هو الآخر. وكل ذهنية تملي على صاحبها نموذجا معينا من السلوك، وإدراكا خاصا للأمور، ورؤية معينة للأحداث، وتفاعلا مميزا مع كل ما يقع أو مع ما يمكن أن يقع. وإذا كان الأمر كذلك فهل

بإمكـــان أي خطـــاب نهضـــوي، مهما كانت جودته، أن يتماشى، وفي آن واحد، مع هذا اللفـــيف من الذهنيات؟ قد لا يكون الجواب في منتهى السهولة لذلك فأن اقتراح صيغ عدة لخطاب واحد يبدو اقتراحا يستحق التفكير.

الشروط التقنيـــة للخطاب النهضـــوي:

إن مـــا نعنـــيه بالشـــروط التقنية هي تلك الشروط التي تساعد على صياغة الخطاب النهضـــوي صـــياغة تمكنه من بلوغ ما حدد له من أهداف، ومن تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من غايات.

والشـــروط هـــذه تعـــتمد في مجملها على ميكانيزم نفسي واحد هو الإيحاء. ويمكن تعـــريفه بأنه عبارة عن محاولة غرس أفكار معينة أو اعتقادات محددة في ذهن الآخر أو فـــي أذهان الآخرين وذلك دون تقديم دليل منطقي واحد على صحة الأفكار أو المعتقدات المراد غرسها. والدليل المنطقي الوحيد الذي يمكن الاستعانة به في عملية الإيحاء أن جاز لـــنا أن نسميه كذلك، هو التماشي مع ما هو موجود من اعتقادات لدى الفرد المخاطب أو علـــى الأقل إقناع هذا الأخير بأن ما يراد توصيله إليه، هو نفسه ما يؤمن به هو. والسبب في ذلك يعود إلى أن غالبية ما يصدر عن الشخص من تصرفات وأفكار ترجع، وبالدرجة الأولى، إلى بنائه العقائدي الذي أمضى في تشيده وتنظيمه الكثير من سنوات عمره. ولذلك فـــإن الفكرة التي يمكن أن يكتب لها النجاح في اجتياز الخط الدفاعي للشخص، ويمكن أن تحظـــى بالتالي برضاه وترحابه، هي الفكرة التي تتناسب ولا تتنافى مع العقائدي. أما ما عداهـــا مـــن الأفكار والمعتقدات فإنها سوف لن تقابل إلا بالإعراض والنكير، إن لم نقل بالعداوة، من قبله. فالإيحاء إذن وسيلة فعالة طالما اعتمد على ما هو موجود من معتقدات لـــدى الشـــخص، أو طالما لم يحاول الدوس عليها، فإن حاول ذلك فإن الفشل سوف يكون هـــو المآل. ومن الدراسات التي يمكن أن يستدل بها على مدى نجاعة الإيحاء في التأثير علـــى أفكـــار الآخرين وتوجيهها، تلك التي قام بها عالما الاجتماع الأمريكيين **سوروكين وبولديـــراف** Sorokin and boldyreff. لقـــد قامـــا بإسماع جزء من السيمفونية الأولى **لبرامز Brahms** لعينة مكونة من 1484 طالب ثانوي في مرحلتين مختلفتين، كما حاولا إيهام السامعين بأن القطعتين الموسيقيتين مختلفتان تماما، وذلك حينما قدما لعملية الإسماع الأولى بالقول بأن هذه القطعة أعظم، وأكثر إتقانا وأجمل من القطعة التي سوف تستمعون لهـــا فيما بعد. وفي عملية الإسماع الثانية كانت المقدمة تقول عن القطعة بأنها تقليد مبالغ فـــيه لـــتحفة معروفة يخلو من كل جمال واستقلالية. وكانت النتيجة أن 96% من الطلبة

تقـبلوا فكرة اختلاف القطعتين عن بعضهما البعض. وعن عملية الإيحاء الثانية والمتمثلة فـي ادعاء أحد المختصين ـــ أو الذي قيل عنه أنه كذلك ـــ بأن القطعة الأولى أحسن مـن القطعـة الثانية، فقد توصل الباحثان إلى أن نسبة 59% من المستمعين قامت بتبنيه والإيمان به والإذعان له. ولم يسلم من عملية الإذعان هذه سوى أربعة بالمائة من العينة. هـذه النسـبة الضـئيلة هـي وحدها التي استطاعت أن تقاوم عملية الإيحاء وتقرر بأن القطعتيـن همـا في الحقيقة قطعة واحدة. أما النسبة الباقية ـــ وهي 21 %ـــ. فاكتفت بتعلـيق حكمهـا علما بأن 16% من العينة رفضت حكم الخبير المتعلق بأفضلية القطعة الأولـى "(20). وفيما يلي البعض من التقنيات المستعملة من قبل مصممي الدعاية والتي يمكن مراعاتها عند إعداد الخطابات النهضوية:

1- **استعمال الرواسم والأنماط:Stéréotypes**: من الميول التي لا يكاد يخلو منها أحـد، الميل إلى تصنيف الناس وفق أنماط جاهزة؛ وكثيرا ما تكون هذه الأنماط بعيدة كل الـبعد عـن الحقـيقة، وكثيرا ما تكون منافية لما هو عليه واقع الناس تمام المنافاة. ومن الأنمـاط الكثـيرة الاستعمال يمكن أن نذكر الشيوعي، واليهودي، والرأسمالي والمتطرف والإرهابي وما إلى ذلك. والشيء الذي يعطي لعملية التصنيف هذه أهميتها وخطورتها هو لجـوء الـناس إلـى تفسـير ما يصدر عن المصنفين من تصرفات وفق ما يحملونه من انطـباعات عن النمط أو النموذج الذي صنفوا وفقه، لا وفق ما هم عليه في الواقع كأفراد مختلفيـن تمام الاختلاف عن بعضهم البعض، ولذلك يكفي أن يقال عن فلان بأنه إرهابي مـثلا ليلبسه الناس نعوتا قد يكون بعيدا عنها كل البعد، وليجردوه من عدد من الفضائل قد يكون أقرب إليها من غيره.

2- **تغيير الأسامي**: كثيرا ما يعمد المروج لمذهب، أو المهاجم لعقيدة، إلى التلاعب بالأسماء باستبدال ما يبدو قبيحا منها بأخرى أحسن منها، أو العكس، أي استبدال ما يجلب الرضـى والطمأنينة من أسماء بما يدعو إلى الريبة أو السخط منها. والهدف من كل هذا هـو محاولة التنفير مما لا ينفر في العادة، أو الرغبة في تحبيب ما لا يدعو إلى الحب في غالب الأحيان. والنتيجة هي التضليل، والتعمية، والتزوير، لا غير. وكثيرا ما استعمل هذا الأسـلوب لغرس عادات أو سلوكات ما كان لها أن تغرس بدونه. فالخمر أصبحت شرابا روحـيا، والرأسـمالية أصبحت السوق الحرة وهكذا. ومن التلاعب بالأسماء اللجوء إلى اسـتخدام الأسماء البراقة، إذ هي أقرب من غيرها على الخداع أو على جلب الانتباه على الأقل تقدير.

3- **الانتقاء والحذف Sélection**: هو عبارة عن عملية تدليسية نظيفة إلى حد ما، وذلك لأن القائم بها يعمد اختيار الحقائق التي تكون في صالح ما يدعو إليه، وتجاهل ما سوى ذلك تجاهلا تاما. ولذلك فإن المروّج لبرنامج حزب سياسي مثلا سوف لن يتعرض إلاّ لمحاسن هذا البرنامج، ولما يمكن أن ينتج عنه من مصالح وفوائد، وسوف لن يتعرض أبدا للنقائص التي يمكن أن تنجم عن تطبيق البرنامج الذي يدعو إليه وينافح عنه. وعملية الانتقاء هذه هي في الواقع نوع من الرقابة التي يراد من ورائها السيطرة على التركيبة الذهنية للأشخاص وتوجيههم بعد ذلك الوجهة المطلوبة.

4- التكرار: إن التكرار المتواصل لعبارات معينة، وحتى الجوفاء منها، كثيرا ما يساعد على نشرها وتقبلها بين الناس. ومن العوامل المساعدة على هذا التقبل اختلاق شعارات أضخم من محتواها، ومفرادات ليس لها معنى إلا ما يدور في خلد المستقبل للدعاية.فتساوي الفرص مثلا شعار طالما استخدم وسلعة روج لها، وفي أكثر من بلد، لكن هل من معنى لهذه العبارة في الواقع ؟ ومع ذلك فهل وصل الناس، وعامتهم على الخصوص، وإلى إدراك زيفها وحقيقة مضمونها؟ وهل تخلى أصحاب الدعاية عن استخدامها والاستفادة منها؟

5- التأكيد Assertion: إن صاحب الدعوة لا يلجأ في العادة إلى مناقشة ما يدعو إليه، فكل همه هو تقديم التأكيدات تلو التأكيدات. ومن شأن هذا الأسلوب التركيز على الجوانب الايجابية بكثرة ما يورده من حقائق دامغة، أو بما يوهم الناس أنها كذلك، والتجاهل أو التغافل عن كل عيب أو نقص. وتلعب قوة شخصية الداعي، وهو يعلن عن برنامجه أو أفكاره، من الأدوار قد تعجز عنه الكلمات والعبارات.

6- **تعيين العدو** : من الأمور التي لا يكاد يستغنى عنها أحد من الدعاة السياسيين اللجوء إلى إرجاع ما يعاني منه الناس من مشاكل مختلفة ومتاعب لا تحصى إلى عدو معين يحملونه من الآثام ما لم يقترف، ومن المآسي ما هو براء منها، وحين يغيب هذا العدو يلجأ السياسيون إلى إختلاقه، وحث الناس على تفريغ جام غضبهم عليه. وفي ذلك توجيه لمشاعر الناس العدوانية نحو جهات قد تكون أبعد ما تكون عما يعانون منه. وبذلك يستريح السياسي وينعم براحة البال.وبذلك أيضا تتقوى المشاعر الجماعية وترتفع المعنويات حينما يراد لها أن ترتفع.

7 - **الاعتماد على المرجعية: The appeal to Authority** الاعتماد على المرجعية أو على سلطة معينة يستند عليها صاحب الدعاية، في أدائه لمهمته، هو بمثابة إثقال ما لا ثقل له في الواقع، وتحسين ما لا تحسين له. والسلطة المعتمد عليها قد تكون دينية أو سياسية، وقد تكون علمية. فلكل مجال سلطة خاصة به، ولكل زمان سلطته أو سلطاته. والرجوع إلى شخصية علمية بارزة، مثلا، من شأنه أن يلبس سلعة معينة، مادية أو غير مادية،لبوسا حسنا ومغريا، ولنا في ميدان الإعلان التجاري مثل ناصع لما يمكن أن تقوم به السلطة حين يتعلق الأمر بتمرير ما لا يمرر من السلع عادة إلا بشق الأنفس وبالكثير من العناء(21)

وقد يكون من المفيد معالجة موضوع تغيير الاتجاهات، وهو من أهم ما تقوم به الدعاية من وظائف،وفق ثلاثة عناصر هي الداعي the communicator والدعوة communication أو الموضوع،والمدعوون the audiance.

1- **الداعي** : في دراسة لهو فلاند وفايس Hovland &Weiss تم نشر مجموعة من المقالات المتماثلة في عدد من الصحف والدوريات وهي تحمل إمضاءات شخصيات ذات أوزان مختلفة، وكان الهدف من الدراسة هو محاولة التعرف على مدى التأثير الذي يمكن أن يحدثه الداعي، وذلك بغض النظر عن موضوع الدعوة أو الدعاية.وكانت النتائج في غاية من الدلالة، إذ تبين أن الخطابات التي أسندت إلى شخصيات ذات مصداقية ضعيفة (البرافدا مثلا) بدت للناس أكثر انحيازا، وأقل صدقا من مثيلاتها التي تم نسبها إلى شخصيات مرموقة. كما تبين أيضا أن المصادر ذات المصداقية العالية استطاعت أن تحدث، لدى الجمهور، تغيرات أسرع من تلك التي أحدثتها من غيرها. ويرجع الباحثان هذه الاختلافات في النتائج إلى أن نوعية المصدر هي التي تحدد تقبل الناس، أو عدم تقبلهم، لمضامين الخطابات أو بالأحرى مدى استعدادهم لذلك.

2- **الخطاب** : عندما يحاول صاحب الخطاب إقناع مخاطبيه بوجاهة وجهة نظره فإنه عادة ما يعمد إلى الاستعانة بما في حوزته من الأدلة والبراهين، وذلك لأن هذه الأخيرة تؤدي نفس ما تؤديه البواعث من الوظائف. وتنقسم البواعث عموما إلى مجموعات ثلاث أولاها الدلائل المقنعة، وهي التي تقود المخاطبين إلى الاقتناع بصحة ما يورده أو بما يحاول أن يصل إليه المخاطب من نتائج. وثانيتها النداءات الايجابية وتتمثل في تلك التي يحاول الداعي من خلالها تبيان ما يمكن جنبه منه فوائد لقاء الامتثال للدعوة، وهناك ثالثا وأخيرا النداءات السلبية وكلها تحذير من سوء عاقبة عدم الامتثال لها.

إن فعالية النداءات أو الخطابات السلبية تكمن في القدرة على استثارة التوترات الانفعالية، وفي القدرة بعد ذلك على خفضها أو التقليل منها. وقد بينت بعض الدراسات أن درجة الاستثارة تعتمد على قوة الخطاب فكلما كان هذا الأخير قويا كلما كانت التوترات الانفعالية الناتجة عنه قوية هي الأخرى. وما قد يدعو إلى الاستغراب هنا هو أن أقل الخطابات قوة تحدث من الآثار مايفوق تلك التي تحدثها الخطابات القوية، أو الأقوى منها، من حيث الامتثال لمضمون الخطاب. وأكثر من هذا توصل جانيس وفاشباك (1954) Janis and Feshback، وهما صاحبا الدراسة التي نحن بصدد الحديث عنها، إلى أن الخطاب القوى فشل في احداث أبسط التغيرات في الاتجاه المطلوب، أي إتباع القواعد الصحية الخاصة بالمحافظة على الإنسان من الطلبة الثانويين المكونين لعينة الدراسة، ولا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن التخويف إنما يحدث حينما يشعر المخاطبون بأن أخطارا ما أضحت تهدد أهدافهم،أو أمنهم، أو قيمهم(22).

ومن مواصفات الخطاب الجيد أيضا تماشيه مع معايير الجماعة، الشيء الذي يعني أن درجة مقاومة الأشخاص للمحاولات الهادفة إلى تغيير اتجاهاتهم تزداد كلما ازداد الفرق بين معاييرهم وبين ما يدعون إليه ويرغبون فيه من اتجاهات وأفكار. والأمر هذا هو ما وصلت إليه بالضبط الدراسة التي قام بها كيلي Kelley (1955) والتي يمكن أن يستنتج منها أيضا أن نجاح أو فشل أي خطاب إنما يعتمد، وفي الكثير من الأحيان،على مضمونه أو محتواه(23). وقد يعتمد أيضا على كيفية صياغته –من تقديم للآراء المتعارضة، ومناقشتها،أو عدم تقديمها – ويبدو من النتائج التي توصل اليها بعض الباحثين في هذا المجال أن مناقشة الرأي المعارض للاتجاه الذي يراد غرسه تعطى نوعا من المناعة ضد كل ما يمكن أن يتعرض له الأشخاص من دعايات مضادة بعدئذ. وهو يعني أن الدعاية المبنية على أسس متينة أفضل من تلك التي تراعي منطقا أو واقعا.

3- **المخاطبون:** مما لاشك فيه أن الأشخاص يختلفون فيما بينهم من حيث الاستجابة لما يتعرضون له من مثيرات أو ضغوط، ولذلك فإن أحسن طريق لضمان النتائج المرغوبة هو الطريق الذي يأخذ استعدادات المخاطبين بعين الاعتبار. ومن ضمن هذه الاستعدادات يمكن أن نذكر ميل الفرد إلى أن تكون تصرفاته مماثلة لتصرفات الجماعة التي ينتهي إليها، إذ دلت بعض البحوث، وخاصة منها التي أجراها كيلي وفولكارت Kelley an Wolkart (1952) على إن أكثر الناس مقاومة للخطابات التي تتنافى ومعايير الجماعة هم الأكثر حرصا على الانتماء الاجتماعي.ومن بين الاستعدادات

الواجب مراعاتها هناك أيضا اختلافات الأفراد من حيث القابلية للاقتناع فالذكي مثلا أقدر من غيره على تمحيص ومناقشة ما يلقى على مسامعه من أفكار واستنتاجات. كما أن الذي يملك نسبة عالية من الاعتداد بالنفس عادة ما يكون هو الآخر أقل الناس قابلية للاستهواء، وأقلهم تأثرا بالخطابات الرامية إلى أحداث تغيرات في الجانب العقائدي للشخص. وعلى العكس من ذلك فإن من بين الأشخاص الذين يسهل استهوائهم، يتواجد أولئك الذين يعانون من سوء التكيف الاجتماعي، وذووا الميول الإكتئابية، وغيرهم ممن يعاني من مشاكل شخصية معينة. والاستنتاجات هذه هي بعض ما توصل إليه جانيس Janis(1954) في بحث له أجراه علي عينة مكونة من طلبة الجامعة.ومما توصل إليه أيضا هو أن اطلبة الذين أبدوا مقاومة كبيرة تجاه ما تعرضوا له من محاولات إقناعية هم الذين تحصلوا على درجات عالية في المقاييس الخاصة بالكشف عن القلق العصابي والأعراض الحصارية (24) ولا غرابة في ذلك، ولا تناقض مع قلناه آنفا من أن سوء التكيف يجعل من أصحابه لقمة سائغة لمروجي الخطابات الدعائية، إذ أن المقاومة الشديدة لمحاولات الإقناع المختلفة إنما تخص أولائك الذين يعانون من أعراض نفسية حادة.

ويمكن القول، بصفة عامة، بأن الخطاب الذي يتماشى مع ذهنيات أغلب الناس هو الخطاب الذي يأخذ بعين الاعتبار المبادئ التالية(25).

- إن أغلب الناس يريدون أن يشعروا بأن المخرج مما هم فيه أو مما يعانون منه بسيط وغير مقعد.
- كما يريدون أن يشعروا أن أحكامهم المسبقة أحكام صحيحة.
- ويريدون كذلك أن يشعروا بالانتماء.
- ويحتاجون إلى عدو يرجعون إليه مشاكلهم ومآسيهم.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القواعد الدعائية تعد من بين إبراز وأهم ما يعتمد عليه في التخطيط للسيطرة على الجماهير.

الخطاب النهضوي العربي وتحديات قرن جديد

تستعد الأمة العربية، كغيرها من الأمم، لتوديع قرن شارف النهاية ولاستقبال فجر القرن جديد، بل ولقد لامست قدما هل مشارفه بالفعل،فهل تستقبل هذا الوافد الجديد بلباسها، أو بلباس استعارته من غيرها؟ وهل تدخل هذا القرن مطأطئة الرأس، منحنية

الظهـــر، شاحبة اللون، مرتعدة الفرائص، خائفة ذليلة، كما يدخل العبد الآبق بيت سيده، أم هـــل ســـتدخله وكلها همة وعزم وتحدي؟ إن الإجابة هي ما تمليه هذه الأمة على نفسها، وهـــي ما تعده أو ستعده من أساليب مخططات لاحتواء ما يعترض طريقها من تحديات. وقـــد لا تفيد الخطابات كثيرا في مواجهة هول ما تعانيه من أزمات، وفي التغلب على ما يعـــيق سيرها من عقاب وعقبات، ومع ذلك فإن الرشد عدم الاستهانة بصغائر الأمور، أو بما يعتقد أنها كذلك، فلكل دور، ولكل وظيفة، وقد أبنا ما يستطيع الخطاب فعله من تغيير للاتجاهـــات والقـــيم عن طريق تغيير نمط التنشئة السياسية، وعن طريق استخدام وسائل الإعـــلام. وعن طريق استخدام المناهج التعليمية(26)، وعن طريق غير هذه من الوسائل. ومـــا يستطيع الخطاب النهضوي العربي فعله. بل وما يجب عليه فعله، بل وما يجب عليه فعله، هو القيام بعمل تمهيدي قد لا تستطيع الأمة العربية بدونه أن تحقق ما ترنو إليه من إقـــلاع. أو أن تدرك ما ترضيه من نهوض ورقي، ويتمثل العمل التمهيدي هذا السعي من أجـــل تخليص هذه الأمة من كافة ما يكتنف وجودها من معوقات، وفي الإحاطة بسائر ما تواجهه من تحديات، داخلية في بعض الأحيان وخارجية في بعضها الآخر.

التحديـــــات الداخليـــة:

لقـــد ابتليت هذه الأمة في العصر الحديث بعدد من الأدواء المزمنة لعل من أبرزها الازدواجـــية الثقافـــية، والخـــنوع النفسي، والازدواجية السياسية. فبالنسبة للمشكل الأول الأمـــور بلغت من الغرابة والاغتراب حدا جعل الروائي المعروف نجيب محفوظ يصرح فـــي وضـــوح تـــام بأن المثقفين العرب "**غرقوا طوال 150 سنة في نقاش لا أول له ولا آخـــر، حـــول من يكونون**"(27) ليصلوا في النهاية إلى نقطة البداية، أي إلى التساؤل من جديـــد، وليصل آخرون إلى " أن ثقافتنا قريبة أشد القرب من الثقافة الأوروبية وذلك لأن كلامهـــا يقوم على أسس واحدة مشتركة قريبا(28)، وعلى الرصيف المقابل تقف فلول من المثقفيـــن تتكلم لغة غير هذه اللغة، وتسلك طريقا غير هذا الطريق، وترفض رفضا قاطعا الانصـــياع لثقافة الغرب والذوبان فيها. والنتيجة هي " أن المثقفين العرب مازالوا يختلفون اختلافا جوهريا حول وضع المشكلة، وحول الحلول المقترحة لإيجاد حل لها، وهكذا فإننا منذ عهد رفاعة الطهطاوي لم نتمكن من حسم الأمر بعد، أي هل نعود إلى التراث العربي

Bibliothèque Universitaire

الإسلامي أم نقلد الغرب كما يدعوا البعض أو انه ينبغي لنا أن نتخذ موقفا وسطا يوفق بين الــتراث والمعاصرة(29). والنتيجة تتمثل أيضا في تضارب الخطابات وهذا ما يؤدي إلى بلبلة في الأفكار، وغموض في الرؤى، وعمى عن الطريق، "وهناك تتقلب الحقيقة ويصير المــثقفون بلاء على الأمة، ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها، وأعداءها بعد إن كنوا أولياءها، ولا مخرج لنا من هذا إلا بالجمع بين الثقافتين في معين واحد(30) والسؤال هو كــيف يمكن الجمع بين التأليف مابين الشتات؟ قد يكون ذلك بإزالة ما تراكم على التراث مــن غــبار، وبإبراز ما يحويه من نفائس ودرر في ثوب لائق بالعصر الذي نعيش فيه. ومــن شأن كل ذلك تسهيل عودة المثقفين ثقافة غربية إلى أصولهم وإلى ما خفي عنهم من جذورهــم، ومــن شــأن كــل ذلك أيضا استعادتهم لمكانهم الطبيعي والريادي بين أبناء أمــتهم.وقد تأخذ هذه العملية من الوقت الشيء الكثير، وقد ينصاع لها أقوام ويعرض عنها آخــرون، ولذلك فقد يكون الحل متمثلا، ولو مؤقتا، في ذلك الذي حاول فيختة من خلاله الجمع بين مثقفي أمته. ولنستمع إليه ويقول:"ما بحثت عنه قبل كل شيء هو أن اتجه عبر المســائل والبحوث،وفــي فوضــى الأفكار المتناقضة الراجعة إليها، والتي يعارض فيها المثقفون بعضهم بعضا لإلى أن أجمع منها ما استطعت على نقطة واحدة نتمكن من الثبات علــيها، وهذه النقطة يجب أن تكون مصالحنا العامة الأكثر حميمية...ومهما كانت مسائل الخلاف الأخرى فإن إجماع العاطفة يمكن أن يلتقي على تلك النقطة(31).

وأمــا فــيما يتعلق بالخنوع النفسي، أو الخضوع الذليل لكل ما هو غربي، فإن هذه الأمة يجب أن تدرك "إن الكائن الذي يمسك اليوم بإدارة كبير من قضايا هذا العالم هو أحد اثنيــن، روح موهوبة بالعظمة أو غير موهوبة، ولا وجود إلا لهذين الاحتماليين، نستطيع فــي الحــال الأول أن نســأل على ماذا تقوم كل عظمة إنسانية إذا لم تقم على استقلال و أصــالة الشــخص الــذي، دون أن يكون بدعة مصطنعة من العصر، هو كشجرة غارت جذورهــا في عالم الروح الخالد البدائي وخرجت منه وقد وهبت إرادة ثابتة وقوة جامحة كي تقيم تصورها في الواقع(32) فالعظمة التي يتحدث عنها فيختة هي من صنع الشعوب نفسها، ومن نتائج إيمانها بقدرها وبقدرتها، وليست أبدا في ما يصنعه الآخرون لها، أوفي مــا يخــيطونه لهــا من أثواب، أو في ما يرسمونه لها من أهداف. وقديما عرف الإنسان

العربـــي أن " **العـــبد لا يحســـن الكربل يحسن الحلاب والصر**" على حد تعبير عنترة ابن شـــداد. ذلك أن العبد لا يملك ما يدافع عنه ولاما ينافح عنه. والدراسات النفسية الحديثة لم تكـــذب عنـــترة فـــيما ادعاه،ولا فيما رام التنبيه إليه من أن عظائم الأمور ليست من شأن العبيد، ولاهي من شأن من يسير حذو ركاب سيده أو مولاه. ومن بين هذه الدراسات تلك التـــي قـــام بهـــا ماك كليلاند حول بزوغ وافول عدد من الحضارات، والتي كان من بين نـــتائجها إن الانحطـــاط الاقتصادي للإغريق كثيرا ما تزامن وإشراف المربين العبيد على تربية أبنائهم، وهو الأمر الذي أدى إلى غرس سمة الخضوع والتبعية لديهم بدلا من سمة الاســـتقلالية. وهـــو مـــا أدى بدوره إلى انخفاض مستوى دافع الإنجاز لديهم، فالانحطاط الاقتصادي لوطنهم(33).

وأمـــا بالنسبة للازدواجية السياسية فأمرها يكاد يشبه أمر الازدواجية الثقافية ولا يكاد يختلف عنه إلا من حيث الموضوع. فهناك ظاهرتان سياسيتان تتصارعان مع نفس الحلبة وتـــتجاذبان هذه الأمة دون الانقطاع. وقد أطلقنا على الظاهرة الأولى اسم الواقع السياسي، كمـــا أطلقـــنا على الظاهرة الثانية اسم الحطاب السياسي. والواقع السياسي هو ما تعايشه الأمـــة العربـــية فعلا، ويوما بعد يوم، وفيه ما فيه من الضيم والقهر والمعاناة. والخطاب السياسي هو ما يلوح به لهذه الأمة، من قبل سياستها، وفيه من البريق ما فيه، هو كالطعم الـــذي يمكـــن الوصول إليه، أو هو كالسراب الذي يتراءى للظمآن حتى إذا جاءه لم يجده شـــيئا ووجـــد مكانـــه خطابا آخر أكثر منه تضليلا. وقد يرجع وزر هذا التضارب مابين الواقـــع السياسي إلى طبقة من المتملقين، المثقفين منهم وغير المثقفين، وقد يرجع إلى ما عـــدا ذلـــك مـــن العوامل والأسباب، لكن الشيء الأكيد هو " أننا لم نكن أبد متفقين لامع الآخريـــن بمـــا أن هدفـــنا كان يتغير من يوم إلى يوم، وكل يرفع صوتا مختلفا في اللحن العـــام، فـــإن حكومتنا التي كانت تصغى إلينا..ما كانت تعرف إلى أي قديس تلجأ، وكانت مـــثل تقلـــب رأينا نحن"(34). وليس من فائدة الأمة العمل على تعميق الفجوة الفاصلة ما بيـــنها وبين حكامها، أو مابين الواقع السياسي والخطاب السياسي، بل الحكمة هي أن يلجأ إلـــى ترمـــيم ما تبقى من الجسور بين الأمة وساستها، لا إلى محاولة نسفها واقتلاعها من جذورها. وقد يتخذ هذا الترميم شكل إجماع في الرأي يعمل على ترسيخه، لدى هذه الأمة

"فانـــا علـــى يقين أن حكومتنا عندما تجد نفسها أمام إجماع في الرأي وحاجة محددة تبدو كونية تصغى إلينا وتساعدنا إذا أظهرنا الرغبة "(35).

هـــذه إذن هي أهم التحديات الداخلية التي يتوجب على أي خطاب نهضوي عربي أن يأخذهـــا بعين الاعتبار: جمع المثقفين على صعيد واحد، وحل لعقدة هذه الأمة وتخليصها من هوائها على نفسها، وترميم لما تبقى من جسور مابينها وبين حكامها.

التحديـــــات الخارجيـــــــة:

ومن السمات البارزة للحضارة الغربية المعاصرة معاداتها الشديدة لكل ما سواها من الحضـــارات، وســـعيها الدائب من أجل إبقاء الأضعف منها على ما هو عليه من ضعف وتبعـــية،وجر مـــن يضاهيها منها قوة، ويدينها، إلى الامتثال لما تعتنقه من مذاهب، ولما تضـــعه مـــن تصورات، ولما تتبناه من رؤى، والسمة هذه ليست وليدة اليوم وليست من نـــتائج هذا القرن، كما يخيل للبعض ذلك" إن النقد الذاتي للثقافة الغربية... ينبغي أن يعود إلـــى تعميم نظام السوق الذي أفرزه، إلى " النهضة" التي هي ولادة الرأسمالية والاستعمار اللذيـــن ينهضـــان، مـــن وجهة نظر الثقافة، على النمو الاحادى الجانب لعلم فني كمحرك للـــنمو، وفـــي الوقت نفسه على نفي وتهديم لجميع الثقافات الأخرى (غير الغربية)"(36) فجـــذور الحضارة جذور عدوانية دون شك، والسبيل الأوحد لبقاء المجتمعات الغربية على مـــا هـــي علـــيه مـــن عز ورفاهية وسؤدد يمر بالضرورة عبر استنزاف خيرات الغير، واســـترقاق شعوبه، وتسخير كل ما سواها لمصالحها، الآنية منها والعاجلة. والحقيقة التي لا تكـــاد تخفى على أحد هي أن العدوانية التي تتسم بها المجتمعات الغربية ليست موجهة دائمـــا وفـــي كـــل الحالات نحو الغير، إذ أن الطابع العدواني هذا قد طعمت منه الشعوب الغربـــية قـــبل غيرها من الشعوب، وجربت آثاره قبل أن يجربها غيرها. وإطلالة سريعة علـــى ما آلت إليها الأمور بالنسبة للعلوم، وخاصة منها الإنسانية، في المجتمعات الغربية، تبين الطبيعة الحقيقية لهذه المجتمعات. يقول روجي غارودى، في هذا الشأن " هذه الحلقة الغربـــية مـــن تـــاريخ الحضارة اتسمت بنهب جميع القارات الأخرى ونفي ثقافتها. وهي متســـمة أيضـــا بمفهوم " العلوم الإنسانية" ليحمل طابع العلاقات البشرية الفقيرة جدا التي أنجبـــتها : فالعلوم مسماة ب"الإنسانية " التي تستعير مناهجها من العلوم الطبيعية، أصبحت

جوهـرها تقنـيات للتلاعـب بهدفهـا الذي ليس هو بعد الطبيعة، وإنما الإنسان معتبرا " **شـيئا**"،أكان الأمر يتعلق ب" **الإنسان الاقتصادي**" للاقتصاد السياسي الذي يقلص للإنسان إلـى بعـده الوحيد كمنتج أو كمستهلك، أو بعلم الاجتماع وعلم النفس اللذين أصبحا غالبا مـناهج لتكيـيف الإنسـان المسـتلب أو للتلاعب به،سواء أكانت القضية قضية "**الحرب النفسية**" **أو الدعاية** البافلوفية،أو التنويمية، أو للاجتماع يتعلق ب" **الإدارة**" أو ب" **العلاقات الإنسـانية**"(37).فـإذا كانت هذه هي الطبيعة الحقيقية للحضارة الغربية، وإذا كان هذا هو علمها مع أبنائها فكيف يمكن أن يكون عملها مع أبناء غيرها؟ الواقع إن الإنسان لا يحتاج إلـى الكثير من العناء ليدرك أن "النمو هو إله مجتمعاتنا الخفي. وهذا الإله الخفي هو اله قـاس، أنه يتطلب ضحايا بشرية"(38).إذا كان الأمر كذلك فلتكن غالبية هذه الضحايا، أن لـم نقل كلها، من العالم الثالث، لتكن على وجه التحديد من بين أولئك الذين يزعمون أنهم أصـحاب رسالة، أو من بين أولئك الذين يزعمون أنهم يحملون في جعبتهم حلولا للبشر، غير ما يؤمنون به من الحلول. وقد لا يحتاج الغرب من الجهد، لتلبية احتياجات نموه من الضـحايا، أكثر مما يقتضيه التخطيط لبقاء دار نعمان على حالها، أي لبقاء الدول المتخلفة على ما هي عليه من ضعضعة، وخضوع وهوان. ولاشك أن مثل هذا التخطيط هو الذي يقـف، وإلى حد ما، وراء ما تعاني منه الشعوب المغلوبة على أمرها، من بينها الشعوب العربـية، مـن مشـاكل ومـا تواجهه من تحديات. فلو أخذنا على سبيل المثال، مشكل الازدواج الثقافـي وحاولـنا سـبر أغواره لوجدنا أن الذي يقوم بتأجيج دار الفتنة ما بين المثقفيـن ثقافـة عربـية والمثقفين ثقافة غربية، وكلهم أبناء وطن واحد، إنما هو الغرب، والغـرب وحده. فهو الذي يضع المنابر لهؤلاء يرتقون فيها، وهو الذي يصوب ناره تجاه أولئك يحترقون بها، وهو الذي يرفع أقواما ويضع آخرين- يرفع المتسامح بثقافته، ويضع المتشـبث بثقافـته. و تضـيع هـذه الثقافة في خضم هذا الصراع، وتضيع مع الشعوب بأكملهـا.وتـتكرر المأساة هذه مع ما أسميناه بالازدواج السياسي إذ يلجأ أباطرة التجارة العالمـية وسماسرة الأمم إلى التغني بمآثر الساسة، وبما يتميزون به من مزايا، من جهة، وإلـى الكشف عن نواياهم الخبيثة أمام شعوبهم من جهة ثانية، أو يلجأون- كما قال فيختة عن المنافقين من المثقفين وغير المثقفين – إلى " البحث دائما عن طريق الإشاعات الكاذبة

وتشويه مقصود للمبادئ واللغة والوشاية بالأمر أمام الشعوب وبالشعوب لدى الأمراء، أي للتفريق فالسيادة بشكل أكيد كما جرى البحث للتحريض الغرور والأنانية من أجل أن تغدو الرعـية محتقرة فيسهل دوسها بالأقدام في راحة الضمير[39]. وليس من الغريب بعد ذلك أن تعمـل الأنظمـة الغربية على"أن تبقى في السلطة، لصالح أقلية صغيرة من المتعاونين المسـتفيدين من " النمو"، الأنظمة التي تضحي بمصالح شعوبها وبشرفها وبأمانيها، أو أن تقلب الحكومات أو الحركات الشعبية التي تجهد في التوجه نحو الاستقلال الوطني والعدالة الاجتماعية(40). وأما بالنسبة لمشكلة الخنوع النفسي، وهو مشكل ليس من السهل تجاهله، فيكفـي أن نـدرك أن الدعاية" البافلوفية التي تتزع إلى أن تضاعف، على الطرقات، من أسـميناهم بالمعتوهين العدوانيين الذين يسيل لعابهم أمام الأدوات والآلات أو أمام أجسام " السـيارات السريعة" كما يسيل لعاب كلب بافلوف أمام المصباح الكهربائي الذي يعد بكتلة اللحم المألوفة(41). إن الدعاية هذه قادرة على ما تشاء من الأمور شرط أن تجد الأرض المناسـبة، ولا شك أن الذي يساعد على إيجاد هذه النوعية من الأراضي هو خلو الساحة من الخطاب المناسب وخلوها من الخطاب المضاد. وعلى الدعاية فكيفي أن يعلم المرء أن يـتم رصـده لها من الميزانيات كل سنة يقدر بملايير الدولارات (20 مليار دولار سنويا وفقـا لجـريدة أنفورماسيون الفرنسية المؤرخة ب16 تشرين الأول 1972) ليدرك مدى الـدور الـذي تقوم به في تنويم الإنسان وتبليهه، أو تكييفه مع ما يراد له وما يسطر من مشاريع.

إن الدعايـة، كمـا يقـول جارود،"تشكل عدوانا دائما على الإنسان الذي تخضعه لقصـف مـن الأنباء الكاذبة وتثير فيه شهوات وهمية غير محدودة، سواء بشكل مباشر، كالإعلان بالنيون كتكييف السلع ومستهلكيها، أو بشكل غير مباشر في الفيلم أو الرواية أو الإذاعـة المتلفزة، حين تقدم نماذج من السلوك المترف السهل الذي يقاد المشاهد على نحو خفي، إلى تقليده أو الحصول عليه بكل وسيلة، حتى ولو بالجريمة(42) إن الدعاية هذه قد تكـون من أهم ما يواجهه وما سيواجهه الخطاب النهضوي من تحديات ونحن نلج القرن الحـادي والعشـرين،وأن أخطـر ما فيها تلونها أو قابليتها للتلون بكل ألوان الطيف.فهي تمتطـي كافـة الوسائل السمعية والبصرية كما تمتطي غيرها، وبمهارة تامة. ثم هي بعد

ذلـــك، وقـــبل ذلـــك، تـــؤدي كل ما أنيط بها من أدوار، ودون أن تزعج أحدا في غالب الأحـــيان-حتى التفاهة في الدعاية لها دورها ولها ما يبرزها." والواقع أن التفاهة والتسلية بالمعـــنى الباسكالي للكلمة لهما معنى سياسي رئيسي، فصرف الانتباه صرفا ممنهجا عن المشكلات هو وسيلة للسيطرة.وقد كان يعي ذلك تماما الدكتور غوبلز، أحد سادة التلاعب السياسي ووزير دعاية هتلر، فقد حدث أثناء الاحتلال أن المراقب النازي للفيلم فرنسي... تباهـــي أمام سيده بأنه حصل على إنتاج فرنسي لأفلام الدعاية القومية الاشتراكية، فوبخه غوبلـــز توبيخا شديدا على هذه الحماسة المتطفلة. ومذكرته بتاريخ 15 أيار 1942 تكشف عـــن مغـــزى هـــام " أنني شديد الغضب لكون مكاتبنا في باريس تظهر للفرنسيين كيف يتمثلون الوطنية في أفلامهم، وقد أعطيت أوامر واضحة بأن لا ينتج الفرنسيون إلا أفلاما خفـــيفة، فارغة، وبليدة إذا أمكن واعتقد أنهم سيرضون بها(43) هذه إذن ملامح، ومجرد ملامح،" من جزء محدود من الواقع الذي سيضطر إلى مجابهته والتعامل معه كل خطاب نهضـــوي عربي. فهل يستطيع ذلك. ولنتذكر، قبل أن نجيب "أنه لا يفلت من العبودية إلا مـــن أمكنه أن يحدد بحرية أهدافه الخاصة، وأن يشارك في إبداع التاريخ الإنساني إبداعا مســـتمرا" (44)، ولنســـأل " علـــى ماذا تقوم كل عظمة إنسانية، إن لم تقم على استقلال وأصـــالة الشـــخص الذي، دون أن يكون بدعة مصطنعة من العصر، هو كشجرة غارت جذورهـــا في عالم الروح الخالد البدائي وخرجت منه وقد وهبت إرادة ثابتة وقوة جامحة كي تقيم تصورها في الواقع، غير أنه مستحيل على مثل هذه النفس ألا تكرم عند الشعوب الأخرى والأفراد الآخرين ما يصنع عظمتها: الاستقلال والحزم و أصالة الوجود(45).

الهوامـــــش

(1) غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، بيروث، دار القلم، 1977، ص104.

(2) Ziegler, J.Retournez les fusils. Paris, Editions du seuil ,1981,

(3) Brown,J.A.C. Techniques of Persuasion: Propaganda to. Brainwashing. Penguin Books, 1977, P.7

(4) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة د.زكي نجيب محمود، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر،1967،ص147.

(5) Ziegler, P. 91

(6) Ibid, P112

(7) Ibid. , P. 14

(8) ابن منظور، 4، 1988، ص 135.

(9) م.س ص 360

(10) فيختة، 1979، ص 419

(11) محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص 164.

(12) نفس المرجع، ص 352.

(13) فيختة، نفس المرجع السابق، ص45.

(14) نفس المرجع السابق ص 45

(15) إبراهيم منصور، الازدواج الثقافي وأزمة المعارضة، بيروت، دار الطليعة، 1980، ص 10.

(16) الإبراهيمي، نفس المصدر السابق، ص 353.

(17) فيختة، نفس المرجع السابق، ص 45.

(18) نفس المرجع، ص 45.

(19) غاستون بوتول، سوسيولوجيا السياسة، بيروت، منشورات عويدات، 1980، ص 30.

(20) Brown, OP.cit p25

(21) Ibid;

(22) Warren, N and Jahoda, M. Attitudes, Harmondworth, Penguin Books, 1976.

(23) Ibid; P118

(24) Ibid; P123

(25) Brown, Op. cit. P.26

(26) إبراهيم منصور، نفس المرجع السابق، ص. 9

(27) نفس المرج، ص. 26.

(28) نفس المرج، ص. 95.

(29) نفس المرجع، ص. 18.

(30) الإبراهيمي، نفس المصدر السابق، ص.354.

(31) فيختة، نفس المصدر السابق، ص. 213.

(32) نفس المرجع، ص. 218.

(33) Vernon, M.D., Human Motivation, Cambridge, Cambridge University Press, 1973, P. 127.

(34) فيختة، نفس المصدر السابق، ص.213.

(35) نفس المرجع، ص.219.

(36) روجي غارودي، مشروع الأمل، بيروت، دار الأدب، 1977، ص.106.

(37) نفس المرجع، ص.106.

(38) نفس المصدر، ص.05.

(39) فيختة، نفس المصدر السابق، ص.45.

(40) غارودي، نفس المصدر السابق، ص. 100.

(41) نفس المرجع، ص.31.

(42) نفس المرجع، ص.32.

(43) نفس المرجع، ص. 114.

(44) نفس المرجع، ص. 133.

(45) فيختة، نفس المصدر السابق، ص.218.